المحـــاكاة

الدكتور صالح الشماع

« انا وجدنا اباءنا على أمة ، وانا على
آثارهم مقتدون» الزخرف ـ ٢٣

قديماً قال الفيلسوف اليوناني ارسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق٠م٠) ان الانسان حيوان سياسي وان الانسان مدني بالطبع • ومع كل هذا الفارق في الزمن بيننا وبين هذا الذي لقبه المسلمون بالمعلم الأول فان علم النفس الحديث اثبت في نظرياته القائمة على التجربة والملاحظة المقصودة المنظمة صحة رأي الفيلسوف •

ان الانسان يميل ليس بالفطرة فقط الى مشاركة غيره من بني الانسان وانما هو يفعل ذلك بفعل التربية والاتصال الاجتماعي ايضا • وان مشاركة الغير هي على انواع ثلاثة كما يذهب الى ذلك العالم النفسي مكدوجل(١) فهي اما مشـاركة في الافكار وهذا هو الايحاء ، او مشاركة في المشاعر والانفعالات وهذا هو التعاطف او مشاركة في الافعال والحركات والاتجاهات وهذا هو التقليد او المحاكاة • وان شتى مظاهر المدنية الآلية والعمرانية لتقوم على محاكاة الفرد لافعال الغير والا لما أفاد أي جيل من مكتسبات الجيل الفائت • ففي المحاكاة عامل صيانة للحضارة ولمكتسبات الاجيال وهو عامل على التقدم الى الأمام(٢)•

يتحدث غيوم(٣) في كتابه عن المحاكاة لدى الطفل فيقول : «المحاكاة توجد أصلا لدى الحيوان في صورتين: محاكاة بنيوية (مورفولوجية) وذلك كالتشابه أو المماثلة الثابتة في الصورة والهيكل والتلوين بين حيوانات من انواع متفرقة او بين حيوان والكائنات الاخرى (كورقة او غصن) او بين الحيوان والبيئة التي يحيى فيها ومحاكاة وظيفية (فزيولوجية) وذلك مثل التغيرات الآنيـة كما يحـدث في تلون الحرباء التي يثيرها حافز ضوئي ينبه عندها فعلا منعكسا يسبب لها التلون •

---

(١) انظر مثلا كتابه « الوجيز في علم النفس »
An outline of Psych. ص١٧٣ وغيرها . وهو ينشر الفكرة في كتبه الاخرى ايضا مثل كتابه . **العقـل الجمعي** The Group Mind

(٢) سبق لكاتب هذه السطور أن كتب فصلا عن التقليد في كتابه « المدخل الى علم النفس » المنشور عام ١٩٥١ ص ١٣٩ ـ ص ١٥٠ وفصلا عن المحاكاة لدى الاطفال في كتابه « بزوغ وارتقاء اللغة عند الطفل » الطبعة الثالثة

(٣) المحاكاة عند الطفل ، ص ٢٠٩ وما بعدها (من النسخة الفرنسية)

هذه الامثلة البدائية هي ليست من المحاكاة لدى الانسان في شيء • فالمحاكاة عند غيوم هي « تأثر الكائن الحي بفعل او اتجاه كائن حي مماثل وان فعل او اتجاه الاول يتحدد بفعل واتجاه الآخر »• هكذا قد نجد الطير يحاكي بقية الطير من نوعه في زقزقاتهم ، لكن هنا كما هو واضح ، وكما يحدث في عدد من الحالات الاخرى يختلط العامل الفطري للمحاكاة بالعوامل المكتسبة • ومن هنا فعلى الرغم من الاقوال الشعبية بان القردة قادرة على المحاكاة للغير من الناس الا ان ما يحدث لديها في التعريف المذكور اعلاه ، ويبدو ان ما يحدث لديها هو اقرب الى ان يكون مظهراً للدافع الجمعي كما يظهر ذلك لدى الحيوانات الاجتماعية كالماشية مثلا[٤] • فهذه بفعل التعاطف الساذج نراها مستعدة الى الفعل كما يفعل الغير من بني جنسها كان تهرب سوية او تقدم سوية وهكذا • وان اكثر ما نشاهده او نتصوره من افعال المحاكاة لدى الحيوان – فيما يرى مكدوجل – هو نتيجة الميل الجمعي والتعاطف البدائي الساذج •

يرى النفساني السويسري بياجيه Piget [٥] ان المحاكاة متوازية في نشاطها مع الذكاء وانها مظهر له وتعبير عنه ، اي كلما كان الطفل اكثر ذكاءاً استطاع اكثر ان يتلائم مع اتجاهات الراشدين ويحاكي افعالهم واصواتهم بصورة اكثر كفاءة • وعند اكثر الباحثين[٦] ان ظهور المحاكاة يكون عند اواخر العام الاول من العمر • الا انهم يختلفون في انواع المحاكاة • فبعضهم يرى الاشكال الاولى من المحاكاة تظهر مبكرة جداً وقد تواكب الميلاد نفسه ، في حين ان البعض الآخر يرى الاشكال الحقيقية لا تبزغ الا عند الاقتراب من الرابعة من العمر •

وابرز ما نراه لدى الطفل هو المحاكاة للاصوات ، لاسيما وان عملية اخراج الاصوات تبدأ بصرخة الميلاد • الا ان الطفل يمر في الاشهر الاولى بل وحتى العام الثاني من العمر بفترات اولية كمرحلة الصراخ ومرحلة المناغاة[٧] وفيها يكون تأثير المحاكاة لاصوات الغير قليلا ، لأن الصراخ والمناغاة اكثر أن

---

(٤) انظر مكدوجل في كتابه الآنف الذكر – الوجيز في علم النفس المنشور عام ١٩٦٧ ص ١٢٩ – ص ١٤٦ . وفيه يحيل الى تجارب واطسن في كتابه (السلوك الحيواني) .

(٥) أنظر كتابه (بالفرنسية) « تكوين الرمز عند الطفل » ١٩٤٥ ص ١٢ .

(٦) « بزوغ وارتقاء اللغة » الآنف الذكر ص ١٢٩ وما بعدها .

يكونا نتاجاً تلقائياً من ان يكون فيهما محاكاة لصراخ او مناغاة الغير • وما يحدث في محاكاة الطفل لاصوات الآخرين يحدث في محاكاته حركاتهم وافعالهم واتجاهاتهم • وكما يحدث في رسوم الطفل اذ انها حتى الثالثة من العمر تكون خالية من التفاصيل ـ كالعينين او اليدين مثلا ـ ثم تبدأ التفاصيل بالظهور في الرابعة وما بعدها ، كذلك الحال في المحاكاة اللغوية • والمحاكاة في المجالات الاخرى الحسية والحركية تتدرج بالاكتمال على المنوال نفسه ـ أي من العموم الى الخصوص ومن الاجمال الى التفصيل •

وفي المحاكاة مظهران او مستويان يجب التمييز بينهما • فهناك مجرد الاندفاع الى التقليد والمحاذاة الذي نجده في شتى الصور لدى الطفل ولدى الراشدين على السواء • وهذا الاندفاع هو تعبير عن الميل الفطري وهو ما يتعاون مع امكانيات التعلم الاخرى ، بحيث ان ممارسة هذا النوع او المستوى من المحاكاة تفيدنا في اكتساب فعل جديد او عادة لم يسبق لنا تعلمها • بجانب هذا المظهر الاول هناك مستوى المحاكاة عند ما يكون الفرد قد سبق له تعلم او اكتساب فعل او اتجاه ويرى ما يهيئوه الى اعادة انجازه • مثل هذا يحدث لمن يعرف الشعر ويحفظه ، فاذا وجد آخر يتغنى به او يتمثل به فقد يهتز لذلك وينفعل ويدفعه ذلك الى محاكاة فعل الآخر باتيانه بما عنده من شعر فيعود يتغنى او يتمثل به كالآخر • مظهر القدرة على المحاكاة هذا ، وهو غير القابلية كما في المظهر الاول ، هو ما يحدث لدى الراشدين في اغلب الاحوال[٨] • والتهيؤ الى المحاكاة في مظهرها الاول ، اي كونها مجرد قابلية : يكون اول الأمر لا شعورياً لا ارادياً

---

(٧) المصدر السابق ، ص ٧٢ وما بعدها .

(٨) القابلية Capacity هي مجرد امكانية التحسن أو التقدم في اية وظيفة نفسية ـ كأن نتعلم مهارة ما او نحاول فهم نظرية معينة . أما القدرة فكما يراها النفساني الانجليزي اسبيرمان Spearman فحص الكفاءة الحقيقية لدى الفرد في اداء وانجاز أية مهارة أو فهم • والقدرة لدى اسبيرمان عامة وخاصة : العامة هي قابلية مشتركة او عامة تتمثل في عامل النجاح لدى الفرد . أما القدرات الخاصة فتتمثل في قدراتنا الجامعية النظرية المختلفة ، أو في قدرة في الرياضة البدنية أو في الموسيقى أو في ناحية اجتماعية مثلا . وحسب رأي اسبيرمان اننا في القدرات الخاصة قد نقوى في البعض ونضعف في البعض الآخر (انظر تعريفات هذه المصطلحات في « قاموس علم النفس » تحت الالفاظ المذكورة) .
The New Diet. of Psych., 1952

ثم يصبح لدى الراشدين وبالتدريج عملية شعورية مقصودة لذاتها ـ وذلك مقياس لتربية الفرد ولقوة شخصيته • اي ان الطفل اول الأمر يحاكي افعال الغير واتجاهاتهم : لأن مجرد قابلية المحاكاة موجودة لديه • الا انه بالتدريج يتعلم ان من واجبه ومن مكملات شخصيته أن يحاكي افعالا معينة وجوانب معينة مما يراه لدى الغير من الراشدين •

فالفرد الراشد المثقف السوى يحاكي من الافعال والاتجاهات مما يراه نافعاً ، وبالتالي لا تكون المحاكاة عشوائية غير منظمة • في حين ان الأمر لدى الطفل ولدى الأفراد غير الناضجين على العموم ولدى الأغبياء نراهم يحاكون ما يرون لدى الغير سواءاً كان ذلك نافعاً لهم او غير نافع • ومثل هذا يحدث لدى الشعوب الراقية التي نراها تستجلب من افعال الأمم الاخرى واتجاهاتهم ما تراه نافعاً مفيداً : في حين ان البلدان المتخلفة نراها تأخذ البدع اثر البدع من الأمم الاخرى وان كان في تلك البدع هلاكها ودمارها •

ويذكر النفساني الانكليزي استوت Stout (٩) عدداً من الشروط والظروف التي تهيء الفرد الى محاكاة الغير وهي :

أن من الأيسر أن نحتذى الذوق السائر والاجراءات المصطلح عليها حولنا من ان نفتح سبلاً جديدة بانفسنا • فاتباع الأمر المعروف ، اي المحاكاة ، ينتج عن الاقتصاد في الزمن والصعوبات • وبالتالي فبالاضافة الى ان المحاكاة هي قابلية فطرية ، فانها تصبح لدينا عادة مكتسبة مقصودة لذاتها كما تقدم قبل قليل •

ثم ان الفرد يتعلم بالتدريج انه لأمر عام كراهية اجتذاب الانتباه باظهار ما هو فريد في نوعه غريب في بابه • والكثير منا يكره ان يزعج غيره ببدع جديدة •

وكثيرون منا يتعلمون بالتدريج ان ما يعمله الغير تبرره في كثير من الأحوال اسس معقولة وان الانحراف عما يعمله الغير هو مجلبة للضرر في معظم الاحوال •

هذه الشروط التي يشير اليها استوت اعلاه تقرب بينه وبين وجهة النظر

---

(٩) انظر كتابه A Manual of Psychology

القرآنية اي مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[١٠] ، فالمعروف هو المستحسن امره والعام الشائع المألوف ، والمنكر هو ما شاع استنكاره واجمع السلف والآخرون على عدم قبوله • وفي وجهتي نظر كل من القرآن الكريم واستوت الاهتمام بالمظهر الاجتماعي للمحاكاة وبالجانب الاكتسابي منها • وهذا الجانب يجب ان لا يهمل طبعاً كون المحاكاة اساساً ميلا فطريا وقابلية موروثة •

---

(١٠) يشير مبدأ « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر » الى المحاكاة من حيث أنها عملية مقصودة تنفع في اكتساب ما هو نافع في افعال الغير كما مر في الشرح اعلاه .
أما الآية الكريمة التي صدرنا بها المقال فانها اشارة الى المحاكاة العشوائية غير النافعة كما تحدث المحاكاة لدى الطفل احيانا وكما تحدث لدى الشعوب المتأخرة كما سبقت الاشارة الى ذلك ايضا اعلاه .